الباب السادس عشر

الخوف والرجاء

[إذا وقع منك ذنب فلا يكن سببًا يؤيسك من حصول الاستقامة مع ربك ، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدّر عليك] .

قلت : السائر الصديق ، أو الواصل إلى التحقيق ، كالراكب المغير ، جادًّا فى المسير ، كاد من السرعة أن يطير ، فإذا وقعت منه كبوة أو سقطة ، أو صدرت منه عثرة أو هفوة ، استوى على جواده ، واستمر على إغارته فى طلب مراده ، فإذا سقط وجعل يتمرغ فى سقطته ، كان ذلك دليلا على فترته ، وعدم تحصيل طلبته ، فإذا وقع منك أيها الفقير ذنب فلا يكن سببًا فى قطعك عن الله ، أو يؤيسك من الاستقامة مع الله فيتضاعف عليك وبال المعصية ، وتعظم فى حقك المصيبة والبلية ، فقد يكون ذلك رحمة بك وتنبيهًا لك من سِنَتِك ، كحصول ملل وفترة ، فإذا سقطت نهضت ، وإذا قمت وقد جددت يكون ذلك آخر ذنب قدره الله عليك ، وتأمل ما وقع لكثير من الأكابر كانوا لصوصًا فصاروا خصوصًا ، كإبراهيم بن أدهم والفضيل وأبى يعزى وغيرهم ممن لا يحصى ، فليكن لك بهم أسوة فى حسن الظن بالله . قال تعالى :

(قُلْ يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ)[1] الآية . وقال تعالى : (وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ)[2] وقال تعالى : (لَايَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا القَوْمُ الكافِرُونَ)[3] .

---

(١)الزمر : ٥٣ .
(٢) الحجر : ٥٦ .
(٣) يوسف : ٨٧ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ اَلخطَّائينَ التَّوَّابُونَ » .

وقال عليه الصلاة والسلام :

« إنَّ الله يُحبُّ كُلَّ مُفْتَنٍّ تَوَّاب » يَعْنى كَثِيرَ الذَّنْبِ كَثِيرَ التَّوبَةِ وقال تعالى : (إنَّ الله يُحِبُّ التَّوابِينَ ويحِبُّ المُتَطَهِّرِينَ)[1] .

فهذه الآيات تقوى رجاء العباد وتوجب الاعتدال والسداد .

وقد بين أصل الرجاء والخوف ومنشأهما فى فقال :

[إذا أردت أن يتفتح لك باب الرجاء فاشهد ما منه إليك ، وإذا أردت أن يتفتح لك باب الخوف فاشهد ما منك إليه] .

قلت : إذا أردت أيها الإنسان أن يتقوى رجاؤك فى الكريم المنان ، فاشهد ما منه إليك من الإحسانِ ، واللطف والمبرة والامتنان ، فهل عوّد إلا حسنًا ؟ وهل أسدى إليك إلا مننًا ؟ عليك بسط مننه ، ولك هيأ جنته ، أنعم عليك فى هذه الدار بغاية الإنعام وما قنع لك بذلك حتى أعد لك دار السلام ، باقية مستمرة على الدوام ثم أتحفك بالنظر إلى وجهه الكريم ، تمامًا على سابق إحسانه القديم .

وإذا أردت أن ينفتح لك باب الحزن والخوف ، فاشهد ما منك إليه من الإساءة ، والتقصير فى العبادة ، أو من موافقة الشهوة والاسترسال مع الغفلة ، فإنك إن شهدت ذلك دام حزنك وقوى خوفك ، وربما كان سببًا فى سوء ظنك بربك : (فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا)[2] .

وفى الحديث : « لو لم تُذْنِبُوا لَذَهَب الله بكُمْ وَجَاءَ بِقَوْمٍ آخَرِينَ يُذْنِبونَ فَيَسْتغْفِرُون فيغفر لَهُمْ وَهُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ » .

فدل الحديث على أن شهود الكرم أفضل عند الله من شهود الانتقام .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .

(٢) النحل : ٩٤ .

وخصلتان ليس فوقهما شىء من الخير : حسن الظن بالله ، وحسن الظن بعباد الله .

وخصلتان ليس فوقهما شىء من الشر : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله ، كما فى الحديث .

وبقيت مرتبة ثالثة وهى الغيبة عن الرجاء ، والخوف بشهود ما من الله إلى الله ، وهو مقام أهل الشهود ، فلذلك اعتدل أمرهم فى جميع الأحوال ، نفعنا الله بذكرهم آمين .

ثم إن ثمرة الرجاء ونتيجته البسط ، وثمرة الخوف ونتيجته القبض ، فلذلك ذكره بعدهما فقال :

[ربما أفادك فى ليل القبض ما لم تستفده فى إشراق نهار البسط ، لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعًا] .

قلت : القبض والبسط حالتان يتعاقبان على الإنسان كتعاقب الليل والنهار ، فالليل محل السكون والقرار ، والنهار محل التحرك والانتشار ، القبض لاحظّ فيه للنفس ، والبسط تأخذ النفس حظها منه ، وما لاحظ فيه للناس أقرب للسلامة وأعظم للإفادة .

فالقبض كالليل ، والليل محل المناجاة والمصافاة ، وملاقاة الأحباب ورفع الحجاب فربما أفادك فى ليل القبض من انخناس النفس ، وذهاب الحس ، وموالاة الأنس ، ما لا تستفيده فى نهار البسط ، من تحصيل العلوم ، وتحقيق الفنون : ومجالسة الأخيار ، ومخالطة الأبرار ، فالقبض له فوائد ، والبسط له فوائد ، والعبد لا يدرى أيهما أقرب له نفعًا ، فتعين الوقوف مع ما يواجهه من جهة الحق ، فيتلقاه بالقبول والأدب ، وقد تقدم آداب كل واحد منها عند قوله : بسطك كى لا يتركك مع القبض إلخ . فلا تطلب البسط إن واجهك بالقبض ، ولا تطلب القبض إن واجهك بالبسط ، فقد تستفيد من أحدهما ما لا تستفيده من الآخر ، فلا تدرى أيهما أنفع ولا أيهما أضر ، ولذلك استدل بالآية التى نزلت فى ميراث الأب من الابن ، فالبسط كالأب لأنه ناشئ من شهود ما منه إليك ، وهو فعل الحق الذى صدر منه كل موجود وهو الأصل والقبض كابن لأنه ناشئ

من شهود ما منك إليه وهو الفرع ، إذ الفعل كله من القدرة .

وأما الحكمة فإنما هى تغطية ، وإذا كان العبد جاهلا بمنفعتها كجهله بالأنفع من الآباء والأبناء ، تعين متابعة الحق باتباع مراده وانتهاجه حاله ، من غير تحول ولا انتقال ، ولا تشوف إلى غير ما هو فيه من ذلك الحال ، بذلك يتنور قلبه ، ويتطهر سره ولبه ، فتنكشف عنه الحجب والأستار ، ويتهيأ لحمل الأنوار والأسرار ، كما أبان ذلك بقوله :

[مطالع الأنوار القلوب والأسرار] .

قلت : المطالع جمع مطلع ، وهو محل طلوع الشمس وغيرها ، والأنوار هنا : الواردات والكشوفات التى تكشف الحجب وترفع رداء الصون عن مظاهر الكون ، وقد تقدم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر عند كثير من الصوفية شىء واحد ، وما هى إلا الروح تتطور بحسب التصفية والترقية ، فمادامت مشغولة بحظوظها وشهواتها فهى نفس ونورها مكسوف ، فإذا انزجرت وعقلت بعقال الشرع إلا أنها تميل إلى المعاصى والذنوب ، فتارة تعصى وتتوب ، وتارة تحن وتئوب ، سميت عقلا ونورها قليل ، لأنها محبوسة فى سجن الأكوان ، معقولة بالدليل والبرهان ، فإذا سكنت عن المعاصى إلا أنها تنقلب بين الغفلة واليقظة ، وبين الاهتمام بالطاعة والمعصية ، سميت قلبًا وهو أول مطالع الأنوار ، فتشرق عليه أنوار التوجه ، فلا تزال تترادف عليه الواردات وهى أنوار التوجه حتى يسكن إلى الله ويطمئن بذكر الله ، فحينئذ تسمى روحًا ، وهو أول مطالع أنوار المواجهة ، فبهذه الأنوار ينكشف الحجاب ، وينفتح الباب ، وتدخل فى حضرة الأحباب ، فإذا تصفت من غبش الحس وتطهرت من كدر الأغيار سميت سرًّا ، وهو أول مطالع أنوار المشاهدة ، فإذا تزكت من لوث الأنوار ، وهو الوقوف مع المقامات ، أو الالتفات إلى الكرامات ، سميت سر السر وهو أول مطالع أنوار المعاينة والمكالمة ، ثم لا حال ولا مقام : (يٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا)[1] .

وأما الترقى فى العلوم والمعارف فلا نهاية له على الأبد ، فالقلوب مطالع ،

---

(١) الأحزاب : ١٣ .

ومشارق أنوار التوجه والأسرار مطالع ، ومشارق أنوار المواجهة والمشاهدة والمعاينة والروح والسر قريب بعضها من بعض فى المرتبة ، فلذلك سكت الشيخ عن الأرواح لاندراجها فى الأسرار .

والحاصل : أن النفوس والعقول الظلمة غالبة عليهما . لانهماكهما فى الحس وفنائهما فى الغلس والخنس ، فليستا مطلعًا لشيء من النور . لعدم توجههما إلى الكريم الغفور .

وأما القلب والروح والسر فهى مطالع الأنوار : أى محل طلوعها وإشراقها إلا أن القلب مطلع لأنوار التوجه ، والروح والسر مطلعان لأنوار المواجهة . وقد تقدم تفسيرهما عند قوله : اهتدى الراحلون إلخ وقد سوى الشيخ بينهما ، ومراده ما ذكرناه ، والله تعالى أعلم .

ثم بين ابتداء مطلع هذا النور وهو القلب ، ثم يشرق على الروح ، ثم على السر ، فقال :

[نور مستودع فى القلوب ، مدده النور الوارد من خزائن الغيوب] .

قلت : النور المستودع فى القلوب هو نور اليقين ، ويكون أولا ضعيفًا كنور النجوم وهو نور الإسلام ، ثم لا يزال يتقوى ويستمد من النور الوارد من خزائن الغيوب ، حتى يكون كنور القمر وهو نور الإيمان ، ثم لا يزال ينمو بالطاعة والذكر والصحبة حتى يكون كنور الشمس وهو نور الإحسان ، وخزائن الغيوب هى أنوار الصفات ، وأسرار الذات ، فمنها تستمد أنوار الإسلام وأنوار الإيمان ، ثم تشرق أنوار الإحسان فيتغطى وجود الأكوان .

قال فى التنوير : ولو انهتك حجاب الوهم لوقع العيان ، على فقد الأعيان ، ولأشرق نور الإيقان ، فغطى وجود الأكوان اهـ .

واعلم أن وجه اصطلاح الصوفية رضى الله عنهم فى ترتيب الإسلام أولا ، ثم الإيمان ، ثم الإحسان . أن العبد مادام مشغولا بالعبادة الظاهرة الحسية سمى ذلك المقام مقام الإسلام ، فإذا انتقل العمل للقلب ، وهو اشتغاله بتصفية القلب ، بالتخلية والتحلية وتحقيق الإخلاص سمى ذلك مقام الإيمان ، فإذا انتقل العمل للروح وللسر وهو الفكرة والنظرة سمى مقام الإحسان ، بخلاف الفقهاء فإنهم يقدمون الإيمان على الإسلام ، فيقولون لا يصح شيء دون

الإيمان ، ولا مشاحة فى الاصطلاح : (قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ)[1] .

قال بعض المحققين : اعلم أن لعالم الملك وهو عالم الشهادة أنوارًا ظاهرة ، ولعالم الملكوت وهو عالم الغيب أنوارًا باطنة ، وأشهر ما فى عالم الملك ثلاثة أنوار : نور الشمس ونور القمر ، ونور النجوم ، ويقابلها من عالم الملكوت : نور المعرفة ، ونور الفهم ، ونور العلم . فبطلوع نجم العلم فى ليل الجهل تبدو الآخرة والأمور الغيبية ، وبطلوع قمر الفهم فى أفق التوحيد يشاهد قرب الحق ، وبطلوع شمس المعرفة فى أفق التفريد يقوى اليقن ويلوح وجه المشاهدة وأول نور يلج فى الصدر نور الإسلام ، فإذا انشرح القلب به انقذف فيه نور الإيمان ، فإذا تقوى فيه صار شهودًا ا هـ المراد منه .

قلت : وبهذا النور وسع القلب معرفة الحق ، وهو الذى أشار إليه فى الحديث القدسى :

« لَنْ يَسَعَنِى أَرْضِى وَلَا سَمَائِى وَوَسِعَنِى قَلْبُ عَبْدِى الْمُؤْمِن » .

فانظر هذا القلب الذى وسع الرب سبحانه ما أعظمه وأجله ، فتحبب يا أخى إلى أرباب هذه القلوب ، التى وسعت علام الغيوب ، حتى يوصلوك إلى ما وصلوا إليه من علم الغيوب ، وبالله التوفيق .

ثم ذكر ثمرة النور وهى الكشف عن حقائق الأشياء ، فقال :

[نور يكشف لك به عن آثاره ، ونور يكشف لك به عن أوصافه] .

قلت : أصل النور من حيث هو الكشف ، فالنور الحسى يكشف عن المحسوسات ، والنور المعنوى يكشف عن المفهومات .

أو تقول : نور الحس يكشف عن الأوانى ، والنور المعنوى يكشف عن المعانى ، ولا عبرة برؤية الأوانى خاوية عن المعانى : ثم إن النور المعنوى ينقسم على ثلاثة أقسام باعتبار القوة والضعف .

فنور الإسلام الذى هو كالنجوم يكشف لك الحق تعالى به عن وجود آثاره فتستدل بها عن صانعها .

---

(١) البقرة : ٦٠ .

ونور الإيمان الذى هو كالقمر يكشف لك به عن ثبوت أوصافه فلا يتحرك شيء أو يسكن ، إلا تراه بقدرة الله وإرادته وعلمه وحياته إلى آخر صفاته .

ونور الإحسان يكشف لك به عن حقيقة ذاته ، فلا ترى شيئًا إلا رأيت صانعه فيه بواسطة تجلياته : (اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ)[1] .

فنهاية كشف النور الأول الفناء فى الأفعال ، ونهاية كشف النور الثانى الفناء فى الصفات ، ونهاية كشف النور الثالث التمكين فى الفناء فى الذات ، واستغنى الشيخ عن النور الثالث بذكر النور الثانى ، لأن الفناء فى الصفات قريب من الفناء فى الذات ، لأن الصفات لا تفارق الموصوف ، فمن كان يرى سمعه بالله ، وبصره بالله ، وحركته بالله ، يرى وجوده بالله ، ولذلك استغنى بعضهم بالفناء فى الذات عن الفناء فى الصفات لتقاربهما ، فمهما تحقق أحدهما تحقق الآخر ، والله تعالى أعلم .

ويحتمل أن يريد بقوله : نور يكشف لك به عن آثاره النور الحسى المدرك بالبصر الحسى ، ونور يكشف لك به عن أوصاف نور البصيرة المعنوى ، وعليه اقتصر الشيخ ابن عباد رضى الله عنه ، لكن نور البصر الحسى لا يستقل بإدراك المؤثر فى الأثر ما لم تمده الأنوار الباطنية العقلية ، فالمدار إنما هو على الأنوار الباطنية . وأما الحسية فمدركة لكل أحد حتى البهائم فلا خصوصية لها ، وبالله التوفيق .

ثم المطلوب من العبد هو الترقى من نور شهود الأثر إلى نور الصفات ، ثم إلى نور شهود الذات ، وقد تقف بعض القلوب مع النور الأول فتحجب عن الثانى ، ومع الثانى فتحجب عن الثالث ، كما أبان ذلك بقوله :

[ربما وقفت القلوب مع الأنوار ، كما حجبت النفوس بكثائف الأغيار] .

قلت : قد تقف بعض القلوب مع أنوار المقامات ، دون الوصول إلى الغايات ، فتحجب عن الوصول كما حجبت النفوس بكثائف المحسوسات ،

---

(١) النور : ٣٥ .

عن إدراك لطائف المعانى والمفهومات ، وذلك إما لعدم شيخ التربية ، أو لضعف الهمة عن الترقية .

فقد ينكشف لبعض القلوب عن سر توحيد الأفعال ، فتفنى فى العمل وتذوق حلاوته ، فتقف معه وهواتف الحقيقة تناديها الذى تطلبه أمامك .

وقد ينكشف لها سر توحيد الصفات ، وتلوح لها أنوار المقامات ، كتحقيق الزهد والورع وصحة التوكل ، والرضا والتسليم ، وحلاوة المحبة والاشتياق ، إلى غير ذلك فتقنع بذلك وتقف هنالك ، والمطلوب هو الكشف عن سر توحيد الذات وأنوار الصفات : (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهى)[1] .

فالنور عبارة عن الحلاوة والقوة التى يجدها المريد فى باطنه ، من مزيد إيمان وقوة إيقان ، فحلاوة الخدمة لأهل الفناء فى الأفعال ، وحلاوة الذكر الحسى اللسانى أو القلبى لأهل الفناء فى الصفات مع الحجاب ، وحلاوة الفكرة والنظرة لأهل الفناء فى الذات .

وإن شئت قلت : ربما وقفت القلوب مع أنوار الأحوال ، فتحجب عن مقامات الرجال ، أو مع أنوار المقامات فتحجب عن معركة الذات ، ولذلك قال الشيخ ابن مشيش لتلميذه أبى الحسن : أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم ، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار ، خاف رضى الله عنه أن يحجب بحلاوة الرضا والتسليم عن شهود الذات .

واعلم أن الوقوف مع الأحوال والمقامات إنما هو من عدم الوصول إلى الشيخ . وأما من صحب الشيخ وأكثر الوصول إليه ، فلابد أن يرحله إلى المقصود ، إلا أن يرى همته ضعيفة لا تطيق أنوار الشهود فيتركه على ما هو عليه حتى تنهض همته إلى شهود المعبود ، وشبه الشيخ رضى الله عنه حجب القلوب بالأنوار ، بحجب النفوس بالأغيار ، لاشتراكهما فى الحجب عن الله ، لكن حجب النفس بالأغيار أشد لأنها ظلمة ، والظلمة أشد حجابًا من النور ، فالقلوب نورانية حجبت بالنور ، والنفوس ظلمانية حجبت بالظلمة ، وكثائف الأغيار هى ما ظهر من بهجة الدنيا وزخرفها وغرورها وزهرتها ، وهو التى أشار

---

(١) النجم : ٤٢ .

إليها الحق تعالى بقوله : (زُيِّن لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ)[1] إلخ الآية .

ويدخل فيها ما يلائمها من حب الجاه والرياسة ، وحب المدح والتعظيم ، وغير ذلك من شهواتها وعوائدها ، وهى التى حجبت جل الناس ، وساقتهم إلى الخيبة والإفلاس ، نسأل الله العصمة بمنه وكرمه .

ويدخل فى الأغيار العلوم العقلية واللسانية ، فالاشتغال بها والوقوف مع حلاوتها من أشد الحجب عن معرفة الله ، أعنى المعرفة الخاصة .

ويدخل فيها أيضًا الكرامات الحسية ، كالطيران فى الهواء والمشى على الماء ؛ فالوقوف مع ذلك من أشد الحجب أيضًا ، ولذلك قال بعضهم : أشد حجابًا عن الله العلماء ثم العباد ثم الزهاد ، فسبحان من حجب العلماء بعلمهم عن معلومهم ، والعبّاد بعبادتهم عن معبودهم ، والصالحين بصلاحهم عن مصلحِهم ، والله من وراء ذلك كله ، وفى ذلك يقول الششترى رحمه الله :

تَقَيَّدْتَ بِالأَوْهَامِ لَمَّا تَدَاخَلَتْ
عَلَيْكَ وَنُورُ الْعَقْلِ أَوْرَثَكَ السِّجْنَا
وَهِمْتَ بِأَنْوَارٍ فَهِمْنَا أُصُولَهَا
وَمَنْبَعَهَا مِنْ أَيْنَ كَانَ فَمَا هِمْنَا
وَقَدْ تَحْجُبُ الأَنْوَارُ لِلْعَبْدِ مِثْلَ مَا
تُبَعِّدُ مِنْ إِظْلَامِ نَفْسٍ حَوَتْ ضِغْنَا

وحكمة وجود هذه الأنوار الحسية والأغيار الظلمانية تغطية وستر لأنوار السرائر الباطنية ، كما أبان ذلك بقوله :

[ستر أنوار السرائر بكثائف الظواهر ، إجلالا لها أن تبتذل بوجود الإظهار ، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار] .

قلت : أنوار السرائر هى العلوم اللدنية والمعارف الربانية ، ويجمعها علم الربوبية الذى يجب كتمه عن غير أهله ، ومن أباحه أبيح دمه ، وهو الذى قتل

---

(١) آل عمران : ١٤ .

بسببه الحلاج ، وكثائف الظواهر هى البشرية الظاهرة .

أو تقول : أنوار السرائر هى الحرية الباطنية ، وكثائف الظواهر هى العبودية الظاهرية .

أو تقول : أنوار السرائر هى علم القدرة الباطنية ، وكثائف الظواهر هى علم الحكمة الظاهرة ، فأنوار السرائر معان لطيفة رقيقة سترها الله تعالى بالكثائف الظاهرة ، ولذلك وقع والإنكار على أهلها قديمًا وحديثًا حتى قال الكفار : (مَا لِهٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الْأَسْوَاقِ)[1] وقالوا : (ما هٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)[2] .

ووقوع الإنكار على أولياء الله سنة ماضية ، وحكمة ذلك إجلال وتعظيم لها أن تبتذل وتظهر بوجود الإظهار ، وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار ، فلا يبقى لها سر ولا عز ، ولهذا طلب الأولياء بالخمول واستعمال الخراب والتلبيس ، قال الششترى رضى الله عنه :

إِذَا رَأَيْتَ الْوُجُودْ قَدْ لَاحَ فِى ذَاتِكْ
هَوْدِسْ وَلَازِمِ الْجُحُو دَ ذَاتَكْ وَصِفَاتَكْ
وَاضْرِبْ بِتُرْسِكَ الْـ ـعُقُودَ وَأَلْقِ عَصَاتَكْ

والتهودس : التحمق ، والترس : ما يستر به الإنسان مواقع النبل ؛ والمراد بالعقود العلائق والشواغل : أى اضرب بسيف عزمك علائقك وعوائقك ، وإلقاء العصا كناية عن طرح ما يستند إليه أو يعتمد عليه من أصحاب أو أحباب ، أو أسباب أو حول أو قوة ، أو غير ذلك مما يقع الركون إليه . ويحتمل أن يريد بأنوار السرائر معانى الصفات السارية فى الذات ، وبكثائف الظواهر المحسوسات الظاهرة ؛ فلا ظهور للصفات إلا بالذوات الحسية ، ولا قيام للذوات إلا بالصفات ، فستر الله سبحانه صفاته الأزلية اللطيفة ، بظهور الذوات البشرية الكثيفة ، صونًا لسر الربوبية أن يبتذل بالإظهار أو ينادى عليه بلسان الاشتهار .

---

(١) الفرقان : ٧ . (٢) المؤمنون : ٢٤ .

والحاصل : أن الأشياء كلها قائمة ، بين ذات وصفات ، بين حس ومعنى ، بين قدرة وحكمة ، فستر الحق سبحانه معانى أسرار الذات اللطيفة ، بظهور الذوات الكثيفة ، وستر المعنى اللطيف بالحس الكثيف ، وستر القدرة بالحكمة ، والكل من الله ، وإلى الله ، ولا موجود سواه ، وهذه الكثائف الظاهرة هى أردية وقمص للمعانى اللطيفة .

أو تقول : هى رداء الصون الذى نشر على الكون ، فإذا انهتك الرداء أو قطع بقى المعنى سالمًا ؛ فالتصرفات القهرية إنما تجر الأردية والستور ، دون المعانى والنور ، فالحق منزه ومقدس أن يلحقه ما يلحق العبيد ، فلتكف عن طلب المزيد ، والعجز عن الإدراك من وصف العبيد ، وقد مثلوا أيضًا كمون المعانى اللطيفة ، فى الأشباح الكثيفة ، بالحبوب اليابسة فى الأغصان الرطبة ، فهى كامنة مستترة ، فإذا نزل المطر اخضرت الأشجار ، وأخرجت الثمار ، التى كانت كامنة فيها ، وإلى هذا المعنى أشار ابن البناء فى مباحثه الأصلية حيث قال :

وَهْيَ مِنَ النُّفُوسِ فى كُمُونِ كَمَا يَكُونُ الْحَبُّ فى الْغُصُونِ
حَتَّى إِذَا أَرْعَدَتِ الرُّعُودْ وَانْسَكَبَ الْمَاءَ وَلَان الْعُودْ
وَجَالَ فى أَغْصَانِهَا الرِّيَاحْ فَعِنْدَهَا يُرْتَقَبُ اللِّقَاحْ

هذا آخر الباب السادس عشر .

وحاصلها : آداب السائر فى حال سيره ، بحيث لا يقف مع معصية ، ولا يركن إلى طاعة ، ولا يغلب عليه خوف ولا رجاء ، ولا قبض ولا بسط ، بل يبرز من الغيب فيتلقاه بالمعرفة والرحب ، فإذا فعل ذلك أشرقت عليه الأنوار فتخرجه من رق الآثار حتى تفضى به إلى شهود الملك القهار ، لكن لابد للحسناء من نقاب ، وللشمس من سحاب ، ولليواقيت من صوان ، فخفيت الأنوار بكثائف الأغيار ، إجلالا لها أن تبتذل بوجود الإظهار ؛ وأن ينادى عليها بلسان الاشتهار ، فمن أجل ذلك أخفى أولياءه فى خلقه ، فلا يطلع عليهم إلا من أراد أن يخصه بما خصهم به من سره ، كما أبان ذلك فى أول الباب السابع عشر بقوله رضى الله عنه .